

ابن رشد حياته و آثاره

د. أبو عمران الشيخ

جامعة الجزائر

يعد ابن رشد (520-595 هـ / 1126-1198م) من أعظم الفلاسفة والعلماء في العالم الإسلامي بصفة عامة وفي المغرب والأندلس بصفة خاصة. وكثر الحديث عنه وتضاربت الآراء في العديد من الدراسات حول ظروف حياته ومواقفه. ولذلك ارتأينا أن نعود إلى كتبه لننظر فيها من جديد -وإن كانت نظرة سريعة- لنتحقق من صحة ما نسب إليه الباحثون والدارسون ومن الوقوف على أقواله الأصلية بعيدا عن التأويلات والافتراضات.

حياته: ولد ابن رشد بمدينة قرطبة سنة 520 هـ / 1126م واسمه الكامل أبو الوليد محمد ابن أحمد بن محمد بن أحمد ابن رشد. واشتهر في

العصر الوسيط الأوروبي باسم (AVERRES). وينتمي إلى أسرة معروفة بالعلم والمناصب العليا التي تولتها في الدولة. كان جده قاضي القضاة بقرطبة والأندلس كلها وله فتاوي معتبرة في المذهب المالكي. وكان والده قاضي قرطبة أيضا ولهذا ميز مترجمو الأسرة بين ابن رشد الجد وابن رشد الوالد وابن رشد الحفيد. تحصل ابن رشد الفيلسوف على جميع العلوم المنتشرة في عصره من علم الكلام وفقه وتفسير وحديث وطب وطبيعيات ورياضيات... وتولى القضاء في إشبيلية ثم في قرطبة وانقطع للفلسفة إلى أن برع فيها: «فكانت له فيها الإمامة دون أهل عصره» على حد قول ابن الأبار، وروى مترجموه أن صديقه الفيلسوف الطبيب ابن طفيل (سنة 581 هـ / 1185 م) قدمه إلى الأمير الموحي أبي يعقوب يوسف ونقل لنا المؤرخ عبد الواحد المراكشي القصة كما ذكرها ابن رشد نفسه: «لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبا بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما. فأخذ أبو بكر يثني علي ويذكر بيتي وسلفي ... فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي أن قال: «ما رأيهم في السماء -أي الفلاسفة- اقديمة هي أم حادثة؟ فأدركني الحياء والخوف... فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها».

وطلب ابن طفيل من ابن رشد أن يتولى شرح كتب أرسطو لما كان فيها من غموض. فلبى ابن رشد الطلب واشتغل بتلخيص هذه الكتب وجعلها في متناول الجميع، وكانت له حظوة كبيرة في قصر الموحدين إلى أن دبر له خصومه من الفقهاء الذين حسدوه مكائد واتهموه بالخروج عن الدين

الإسلامي -فنفاه الأمير المنصور إرضاء لهم إلى مدينة (البسطة) وكانت قريبة من قرطبة وكان الفيلسوف قد بلغ السبعين من عمره. وهذا ما يسمى «بنكبة ابن رشد»، ثم عفا عنه الأمير بعد سنة بمسعى أهل إشبيلية الذين شهدوا بسلامة عقيدته. فعاد ابن رشد إلى قصر الأمير واستعاد مكانته إلى أن توفي بمراكش سنة 595هـ / 1198م ودفن بها ثم نقل منها إلى قرطبة وشاهد ذلك محي الدين بن العربي المرسي.

مؤلفاته: -ألف ابن رشد الكثير من الكتب والرسائل ولم تصل إلينا كلها وقد اختلف المترجمون في حصر عددها. ومن أشهر مؤلفاته المطبوعة نذكر الكتب الفلسفية والكتب الإسلامية والكتب العلمية:

1 - الكتب الفلسفية: تنقسم إلى شروح وملخصات أرسطو. وكتب وضعها ابن رشد ردا على بعض المفكرين الإسلاميين. فسر «كتاب ما بعد الطبيعة» ولخص «كتاب الكون والفساد» وشرح «كتاب السماع الطبيعي» وكتاب «السماء والعالم» و«كتاب المقولات» و«كتاب النفس»، ثم رد على كتاب الغزالي «تهافت الفلاسفة» بكتاب «تهافت التهافت».

2 - أما الكتب الإسلامية فهي تشمل كتاب «فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال» وكتاب «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة» وكتاب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه المالكي.

3 - والكتب العلمية تحتوي على كتاب «الكليات في الطب» و«شرح أرجوزة ابن سينا في الطب» و«تلخيص كتاب الماجسطي» في علم الفلك...

اشتهر ابن رشد أولاً بشرح كتب أرسطو إلى أن لقب «بالشارح» ونقلها العديد من المترجمين إلى اللغة اللاتينية في العصر الوسيط وإلى اللغة العبرية أيضاً. وتساءل بعض الدارسين: «هل كانت لابن رشد آراء خاصة أم كانت مجرد نقل لآراء أرسطو؟» وتبين من دراسة شروحه وملخصاته أنه كان وفيًا لمذهب أرسطو من جهة ومجتهدًا من جهة أخرى إذ كان تارة يؤيد «المعلم الأول» وتارة يبدي برأيه الخاص. وقد صنفت هذه الكتب إلى ثلاثة أنواع هي: (1) - الشروح المفصلة أو «التفاسير» مثل «تفسير ما بعد الطبيعة» (2) - الملخصات مثل «تلخيص كتاب النفس» (3) - المختصرات أو «الجوامع» مثل «جامع الطبيعيات»...

مواقفه: وقد اتبع ابن رشد منهجية واضحة في الشروح - فنظر إلى فلسفة أرسطو نظرة شاملة مستعينا في كل شرح بمؤلفات أرسطو كلها. مثلاً في «شرح ما بعد الطبيعة» أشار إلى المنطق والطبيعيات و«كتاب النفس». والأمر الذي كان يهمله هو عرض نظريات أرسطو في خطوطها الجوهرية ومعانيها الدقيقة وكان يستعين بعدد كبير من الترجمات مقارنة بعضها ببعض وكان يرى أنها غير صحيحة أحياناً. وقد راجع بعض النصوص وحققها. أما مقصوده في «الملخصات» فكان التعريف بفلسفة أرسطو ونشرها في عامة الناس وليس للمتخصصين فقط كما كان الأمر في «الشروح». فاكتمى مثلاً في «تلخيص ما بعد الطبيعة». بتحديد موضوع الفلسفة وتحليل المصطلحات وعرض وجيز لبعض المسائل، ولم يلتزم هنا بمتابعة الفصول كما جاءت في الكتب الأصلية. واحتفظ لنفسه بالنقد

والتقدير عندما كان الحال يقتضي ذلك. فاستحسن مثلاً صنع أرسطو لما ركب فلسفته من نظريات الطبيعيين وأفلاطون، ولكن أرسطو كان في رأيه غامضاً في بعض الحالات. وأضاف ابن رشد إلى فلسفة أرسطو ما يؤيد العقيدة الإسلامية في عدد من المواقف مستشهداً مثلاً بالآيات القرآنية المتعلقة بالتوحيد أو الخلق... وهنا يظهر التناسق بين كتب ابن رشد الفلسفية وكتبه الإسلامية. فناقش عدة قضايا تتصل بفلسفة أرسطو وبالعقيدة الإسلامية وانتصر أحياناً لأرسطو ضد المشائين الإسلاميين مثل الفارابي وابن سينا... وأراد أن يصحح آراء الفيلسوف اليوناني. ونلمس ذلك كله في كتابه «تهافت التهافت» الذي رد فيها كما أسلفنا على كتاب الغزالي «تهافت الفلاسفة» وكان الغزالي قد كفر الفلاسفة الإسلاميين في مسائل ثلاثة وهي قدم العالم والسببية وروحانية النفس. ورأى ابن رشد أن الاجتهاد ممكن في هذه القضايا لأنها ليست من الأصول الدينية ولا يجوز تكفير من اجتهدوا فيها. والغزالي غير محق في التحامل على الفارابي وابن سينا وبقية الفلاسفة الذين عبروا عن رأيهم ومواقفهم فيها إذ «إنه ليس يمكن أن يتقرر الإجماع في أمثال هذه المسائل لما روي في الكثير عن السلف الأول فضلاً عن غيرهم...».

وناقش ابن رشد أيضاً صلة الفلسفة بالشريعة في كتاب «فصل المقال» والمواقف التي اتخذها المفكرون من هذه القضية -فقال: «وتطرق... قوم إلى ثلب الحكمة وقوم إلى ثلب الشريعة وقوم إلى الجمع بينهما» -وكان من الفريق الأول الفقهاء. ومن أشهرهم الغزالي -ومن الفريق الثاني بعض المتفلسفين ومن الفريق الثالث ابن رشد نفسه. وهو يرى أن الشريعة تبيح

النظر بالعقل وليس هناك تعارضا بين الفلسفة والدين كما يزعم بعض الفقهاء. بل «إن الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة... مع ما يقع بينهما من العداوة والبغضاء والمشاجرة وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجواهر والغريزة...» وإذا أساء بعض الناس النظر في كتب الحكمة فهذا ذنبهم وليس ذنب الحكمة. وليس من العقل أن نرفض الحكمة بدعوى أنها ظهرت عند القدماء قبل الإسلام، فإذا أصاب هؤلاء في آرائهم قبلناها وإذا أخطأوا رفضناها. و«الهدف واحد: هو البحث عن الحقيقة سواء كان ذلك في الشريعة أو في الحكمة»: «فإننا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع فإن الحق لا يضاده الحق بل يوافقه ويشهد له».

الخلاصة: أثرت فلسفة ابن رشد في العالم الغربي وتكونت فيه مدرسة «الرشدية اللاتينية» في العصر الوسيط وانتشرت كتبه وآرائه في جامعات فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا... وتعصب له بعض المفكرين المتمردين على الكنيسة وحولوا ابن رشد خطأ إلى فيلسوف متحرر جدا وشبهه ملحد! لذلك عارضه «توماس الأكويني» وانتقده وعارضه أيضا رامون لول... ولكن كتب ابن رشد الإسلامية لم تنقل إلى اللاتينية ولهذا كانت مواقف ابن رشد مشوهة. وأهتم العالم الإسلامي بالفيلسوف والفقهاء والطبيب إلى عصر ابن خلدون ثم اختفت آرائه وأثاره في عهد الانحطاط ولم تبرز من جديد إلا في عصر النهضة الحديثة فنشرت كتبه وحقت وقام الباحثون بدراساتها فتكونت «الرشدية الإسلامية الحديثة» وعرفت بها الجامعات والمجلات والكتب وانهقدت فيها الندوات والمؤتمرات غربا وشرقا وظهر الفيلسوف على حقيقته.

المصادر والمراجع:

- ابن رشد: فصل المقال، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر 1978.
- ابن رشد: كتاب الكشف عن مناهج الأدلة، تحقيق د/ محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1964.
- ابن رشد: بداية المجتهد، دار الفكر، دمشق 1970.
- ابن رشد: تفسير ما بعد الطبيعة، تحقيق برج، بيروت 1930-1931.
- ابن رشد: تلخيص ما بعد الطبيعة، تحقيق د/ عثمان أمين، القاهرة 1938.
- ابن رشد: تلخيص كتاب النفس، تحقيق د/ محمود فؤاد الأهواني، القاهرة.
- ابن رشد: الكليات في الطب، تحقيق د/ سعيد شيبان ود/عمار طالبي، القاهرة 1989.
- ابن رشد: تهافت التهافت، القاهرة وبيروت.
- ابن أبي أصيعة: عيون الأنباء، بيروت 1965.
- ابن الأبار: التكملة، القاهرة 1955-1956.
- ابن فرحون: الديباج المذهب، القاهرة، بيروت، فاس.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تخلص أخبار المغرب، القاهرة 1949.

- رينان (إيرنيست): ابن رشد والرشدية، تعريب عادل زعيتر، القاهرة 1957.

- د. محمود قاسم: نظرية المعرفة عند ابن رشد ... وتوماس الأكويني، القاهرة 1948.

- د. محمود قاسم: ابن رشد وفلسفته الدينية، القاهرة 1964.